

من كتاب "تبادل الأمتعة": قراءة في ديستوفيسكى (2) الفصل الثالث: "حركية العلاقات البشرية جدلا وامتحادا في الإخوة كارامازوف" (6 من 6)



نشرة "الإنسان" 2021/09/05

السنة الرابعة عشرة - العدد: 5118

بروفيسور يحيى الرخاوي - الطب النفسي، مصر

[yehiatrakhawy@hotmail.com](mailto:yehiatrakhawy@hotmail.com)

مقدمة:

نختم اليوم عرض نقد الأخوة كارامازوف وأعتذر مكرراً لصدور هذا النقد مجزأً هكذا، لكنني اقتنعت أثناء مراجعتي أنه يستحق أن يقرأ بببطء، بل إنى أوصى أن نقرأ ما ينشر لاحقاً مع ما ينشر تباعاً.

أنا أسف

.....

“أليوشا“

أليوشا ليس بطل الرواية، وهو ليس مشروعاً ثورياً قادماً في جزء رابع، وهو ليس مثالياً شيزيدياً انطوائياً. بصراحة: عجزت أن أتعاطف معه إلا في حدود، لكنني لم أرفضه، ولم أستبعد احتمال تطوره ولكن دعونا نبدأ من البداية.

- تمتع أليوشا، ربما في غفلة من الظروف الواقعية القاسية بجرعة مناسبة من الثقة الأساسية، وديستوفيسكى يعرف بدقة بالغة - كما ألمحنا- كيف أن الشيزيدية/ الجسم الغريب، هي النقيض، الصريح للتكوين النابض: الثقة الأساسية Basic trust ، فهو ينتهز فرصة تقديم شخصية أليوشا ليعلن ويحدد هذا الفرق.

”لقد كان صموتا، لا عن شك وحذر طبعاً، ولا عن خجل أو وجل ولا عن تهم في الطبع والمزاج.. أبدا... بل بسبب شئ خاص في نفسه بسبب اهتمام داخلي.“ (2) ..

ولنقف هنا عند كلمة ”داخلي“ وليسمح لى القارئ أن أتقدم خطوة نحو شرح عالم الداخل والخارج، دون استعمال اللغة السائدة مثل اللاشعور والشعور وما أشبه.

فإذا كان فيدور الأب يسمح لداخله أن يكون خارجاً، فهذا وجه لتكامل سهل، وإن تحدى وتدفق في عنفوان فطري، مع إصرار أنه ”هو هذا“..-”هكذا، ”ومن يعجبه“...!!!..(واللى عاجبه!). وإذا كان ديمتري هو فيدور الأب من حيث سهولة إخراج داخله طازجا فجا مثل أبيه، مع فارق الإلتزام النسبى والوعى بسوء غير ذلك، والأمل فى تكامل ما...، فهو أيضا كذلك، إنسان له داخل ببوابة مروحية، لكن مفاصلها أقوى.

أما داخل إيفان فهو سحيق مشوه، غير مسموح له بالظهور الصريح فى فعل سهل، فهو يخرج من ثقب إبرة العقل، بحساب شامل مقلوب، حتى يمكن القول أنه مثل عفريته الصورة، لكنه غير قابل للتحميم أصلاً، وبما أن العفريته لا تظهر حقيقتها واضحة إلا إذا حُمِصت، فهو داخل - رغم التأكيد على وجوده - إلا أنه لا يظهر - فقط نرى تأثير وجوده المخفى على ظاهر جاف يكاد يتشقق.

أن الشيزيدية/ الجسم الغريب، هي النقيض، الصريح للتكوين النابض: الثقة الأساسية Basic trust ، فهو ينتهز فرصة تقديم شخصية أليوشا ليعلن ويحدد هذا الفرق

لقد كان صموتا، لا عن شك وحذر طبعاً، ولا عن خجل أو وجل ولا عن تهم فى الطبع والمزاج.. أبدا... بل بسبب شئ خاص فى نفسه بسبب اهتمام داخلى

أما داخل إيفان فهو سحيق مشوه، غير مسموح له بالظهور الصريح فى فعل سهل، فهو يخرج من ثقب إبرة العقل، بحساب شامل مقلوب، حتى يمكن القول أنه مثل عفريته الصورة، لكنه غير قابل للتحميم أصلاً، وبما أن العفريته لا تظهر حقيقتها واضحة إلا إذا حُمِصت

أما أليوشا فله داخل آخر، داخل حى من نابض، مليء، يمتلئ، وفى المتناول، كل

إنسان له داخل، لكن يبدو أن هذه المسألة تحتاج إلى تصنيف جديد

أما أليوشا فله داخل آخر، داخل حى مرن نابض، ملئ يمتلئ، وفى المتناول، كل إنسان له داخل، لكن يبدو أن هذه المسألة تحتاج إلى تصنيف جديد. أنا لا أعنى بالداخل هنا“ لا شعور“ مكبوت أو مرموز له.. إلى آخر هذه الرطانة التحليلية، ولكنى أشير إلى مساحات وحركة، وتماسك وامتلاء، ومرونة وجفاف، وتناغم، وتشقق.

فيدور: داخله متواضع لا يملأ كل وجوده، قريب، متحرك، ليس متماسكا لأنه متفجر، يملأ وعيه الظاهر بسهولة وينحسر عنه بنفس السهولة، وفيدور يستسلم له: لا هو وصى عليه، ولا هو يريد أن يوجهه أو يحوره، ولا هو ينكره أو يخجل منه.

ديمتري: داخله قريب أيضا، وسهل أيضا: هو متدفق مهدد، لكن ديمتري - بعكس فيدور كما ذكرنا - له موقف من هذا الداخل، يدفنه غالبا، - ربما حتى “يتخمر كبتا“ غصبا عنه، ويريد أن ينتصر عليه، لكنه لا يستطيع، وهو يأمل أن يتكامل به، ولو فى نقطة ما فى مستقبل غير منظور.

إيفان: داخله بعيد حتى الفراغ، موصى عليه، مشوه، قد يكون فى المتناول بعد عمليات صعبة جافة لا تسمح بخروجه أو الإشارة إليه إلا من ثقب إبرة عقل وصى ومنطق ساخط، ونظام جاف.

أما إيليوشا: فداخله حى متماسك، ليس متجانسا بمعنى الواحدية، وإنما هو ممتلئ به متحرك معه مطمئن إليه، وهو قلق أيضا عليه. ينميه فى عناد المتحفظ دون شك أو تراجع، يتحاور به وبخارجه معا، ويعطى للزمن مساحة تستوعبها حركته، فيتنامى الحوار..

كما أشرت سابقا، فإن أليوشا التقط أمه فى لحظة رضا كوني، فملأت داخله، ونمت بهدوء، وعادت تملأ وعيه، وتهدهده كلما احتاج إليها، وهى كموضوع داخلى حى، هى المسئولة عن يقين حياته الداخلية، كما أنها المسئولة عن توجه مساره إلى موضوعية متصاعدة.

هنا أقف لأركز على أهمية نوعية هذه الرسالة التربوية - نفسيا - مهما قصرت لحظتها، وعلى ضرورة نقائها، وعلى دقة نوعيتها مقارنة بكم من الحضور الجسدى الفاتر، أو مقارنة بحضور غائب كلية، وديستوفيسكى يدرك - بذلك - أن الحياة بداية ثم تنمو، وهذه البداية هى بذرة واحدة أو عدة بذور، ثم مناخ متوسط، وأرض مهياة..

ويبدو أن ديستوفيسكى يعرف ما أعنيه “بالداخل هذا“ حين يقول عن أليوشا. “ولكن يجب على أن أترف مع ذلك بأننى لو أردت أن أشرح على درجة من الدقة معنى تلك الدقيقة القريبة المبهمة من الحياة الداخلية<sup>(3)</sup>” التى عاشها بطلى الذى أحبه كثيرا.. لكان ذلك صعبا على كل الصعوبة.

وقريب مما ذهبت إليه هنا أيضا ما يشير إليه ديستوفيسكى بقوله:

“ألا فاعلموا أن نكرى مشرقة مقدسة، يحملها المرء فى نفسه منذ طفولته هى خير تربية وأفضل تهذيب، ورُبَّ ذكرى مضيئة واحدة كهذه الذكرى تكون كافية لخلصنا لو لم يبق فى قلوبنا أى شئ سواها. (5) ”

مع كل هذه التفرقة التركيبية بين أفراد أسرة كارامازوف من حيث الداخل والخارج، فإنهم جميعا يحملون نفس زخم الحياة وإرادة التغيير، وحفز الاندفاع، وفيض الحركة، وتدفق الوعى.

فمن أين يا ترى جاء هذا الفرق، وهم يحملون نفس الجينيات - تقريبا - ويعيشون فى نفس البيئة.

ليس لزاما أن أعرف، ولا أن نعرف، وإلا تُعسفنا فى الأغلب.

ولكن أنظر إلى ديستوفيسكى وهو يصف الثقة الاساسية Basic trust حالة كونها مسقطة على العالم الخارجى.

“لعل هذا الفتى (أليوشا) هو الإنسان الوحيد فى العالم الذى يمكنك أن تتركه وحيدا بلا مورد فى وسط مدينة كبرى لا يعرفها، ثم إذا هو لا يهلك من الجوع والبرد... إنه سيدبر أموره عندئذ بأبسر طريقة.. فسرعان ما سيأخذه أحدهم فيطعمه ويسكنه (5) ”.

أنا لا أعنى بالداخل هنا“ لا شعور“ مكبوت أو مرموز له.. إلى آخر هذه الرطانة التحليلية، ولكنى أشير إلى مساحات وحركة، وتماسك وامتلاء، ومرونة وجفاف، وتناغم، وتشقق.

فيدور: داخله متواضع لا يملأ كل وجوده، قريب، متحرك، ليس متماسكا لأنه متفجر، يملأ وعيه الظاهر بسهولة وينحسر عنه بنفس السهولة

ديمتري: داخله قريب أيضا، وسهل أيضا: هو متدفق مهدد، لكن ديمتري - بعكس فيدور كما ذكرنا - له موقف من هذا الداخل، يدفنه غالبا، - ربما حتى “يتخمر كبتا“ غصبا عنه، ويريد أن ينتصر عليه، لكنه لا يستطيع

إيفان: داخله بعيد حتى الفراغ، موصى عليه، مشوه، قد يكون فى المتناول بعد عمليات صعبة جافة لا تسمح بخروجه أو الإشارة إليه إلا من ثقب إبرة عقل وصى ومنطق ساخط، ونظام جاف

أما إيليوشا: فداخله حى متماسك، ليس متجانسا بمعنى الواحدية، وإنما هو ممتلئ به متحرك معه مطمئن إليه، وهو قلق أيضا عليه. ينميه فى عناد المتحفظ دون شك أو

تراجع، يتجاوز به ويخارجه معا، ويعطى للزمن مساحة تستوعبها حركته، فيتنامى الحوار..

“ألا فاعلموا أن ذكرى مشرفة مقدسة، يحملها المرء في نفسه منذ طفولته هي خير تربية وأفضل تهذيب، وربّ ذكرى مضئنة واحدة كهذه الذكرى تكون كافية لخلاصنا لو لم يبق في قلوبنا أى شيء سواها

من أين يا ترى جاء هذا الفرق، وهم يحملون نفس الجينيات - تقريبا - ويعيشون في نفس البيئة.

“لعل هذا الفتى (أليوشا) هو الإنسان الوحيد في العالم الذي يمكنك أن تتركه وحيدا بلا مورد في وسط مدينة كبرى لا يعرفها، ثم إذا هو لا يهلك من الجوع والبرد... إنه سيدبر أموره عندئذ بأيسر طريقة.. فسرعان ما سيأخذه أحدهم فيطعمه ويسكنه

إنه منذ فكر تفكيراً عميقاً فاقتنع بوجود الله وخلود الروح، قال لنفسه على نحو طبيعي تماماً إنني أريد أن أعيش للخلود وإنني أرفض التسويات وأنصاف الحلول

رغم أنى رفضت أن أقبل أليوشا بطلا للرواية، إلا أنى أعتز به أنه كان البؤرة التي تتجمع فيها إشعاعات حب أفراد الأسرة فرداً فرداً، بل حتى حب معظم أفراد مجتمعه

لم أستقبل هذا إطلاقاً على أنه تسليم ولا سلبية، لكنه الوصف الحدسي الرائع لما يمكن أن يكون نتاج ثقة أساسية لا نعرف مصدرها حتى مع تأكيدنا على صورة الأم وهي تملؤ الوعي، إلا أنه من الصعب تصور أن ذلك يكفي، لعلها مجرد عينة.

لكن ديستوفيسكى سرعان ما يفسد رؤيته لهذه الثقة الأساسية بأن يضيف عليها الصفات الملائكية. “رغم أنك بما لك من عفة وطهارة لم تتسخ يوماً بهذه الأشياء كما لا يمكن أن يتسخ بها ملاك.” (6) هنا يسقط ديستوفيسكى في الاستقطاب، ومع ذلك فهو يبدأ بنقد شديد لما يزعمه متخصصوا النفس حين يواجهون بشخص مثل أليوشا، فينفي مستنكراً، ومن البداية ، ما يمكن أن يتبادر لمتعجل منهم بمجرد أن يلتقط المظهر الخارجي لأليوشا، فهو يقول ابتداءً وكأنه يخاطبهم:

“إنه ليس واحداً من أولئك الحالمين الصفراء وجوهم، الضعيفة صحتهم الضاوية أجسامهم... إنه مرهق في التاسعة عشر من عمره فياض العافية شديد المهابة مورد الخدين.. مضئ النظرة..” وهكذا سمح لي أن ألتقط بدوري أن هذه القوة ليست قوة ظاهرة بقدر ما هي تناسق دال.

ويعقلنها ديستوفيسكى بلا مبرر عندما يصف إيمان أليوشا كنتاج فكر.

“إنه منذ فكر تفكيراً عميقاً فاقتنع بوجود الله وخلود الروح، قال لنفسه على نحو طبيعي تماماً إنني أريد أن أعيش للخلود وإنني أرفض التسويات وأنصاف الحلول.” (7)

هذا يضع علامات استفهام على طريق نمو أليوشا الإيماني، فالسن صغيرة والحلم غالب. “فقد جاء إلى مدينتنا في ذلك الوقت مفكراً حالماً، ربما للاستطلاع وحده، ربما ليرى هل يعطى كل شيء أم يعطى روبلين فحسب.” (8)

وهو يعترف بكارامازوفتيه، باندفاعيته وزخم حيويته (ليس فقط نحو جروشكا وإنما أيضاً نحو كاتيا)، بل إن استجابته لليزا فيها اندفاع مشابه من الناحية الأخرى - ، كل ذلك رغم أنه الفتى المحب الملتزم الوالد.

وأليوشا يتبنى والده بشكل أو بآخر، ويعلق الحكم، ولا يدمغه مهما فعل. ثم هو يتماذى في عقيدته أنه محبوب بلا قيد ولا شرط ولا سبب، وهذا أحد أسباب تحفظي على مسيرة نموه.

ورغم أنى رفضت أن أقبل أليوشا بطلا للرواية، إلا أنى أعتز به أنه كان البؤرة التي تتجمع فيها إشعاعات حب أفراد الأسرة فرداً فرداً، بل حتى حب معظم أفراد مجتمعه من الكبار والصغار على حد سواء.

ولم أغفل رغم كل شيء النوبة الوحيدة التي أصابته - مثل أمه - التي قد تشير إلى درجة ما من الهشاشة، إلا أنها لم تتكرر، ثم إن الضعف البشري هذا يدفعنا إلى احترام متواضع.

وهو يبدي نضجاً أو حتى كهولة قبل الأوان “اللهم اشلهم برحمتك، اشل برحمتك جميع أولئك الذين لقيتهم في هذا النهار لأنهم، أشقياء (9) ..”

### سمردياكوف

إذا كان لازماً أن ننتقي لكل رواية بطلا (وهو لم يعد لازماً)، فالبطل لا يكون بطول فترة حضوره في الرواية، ولا بأهمية وتعدد علاقاته، ولا بمساحة ظهوره، وإنما - عندى - أن البطل هو الذى يتميز بدلالته المحورية في الأصالة والمثول في عمق العمل الإبداعي.

من هذا المنطلق فإننى أكاد أعتبر سمردياكوف هو البطل - دون أليوشا.

أليوشا لم يتحقق رغم كل هذا الحضور العملى الإيجابي (بالحب الفعال) على أرض الواقع، لكنه ظل فى وعى وحتى الآن وعدا ممكناً مجهولاً، هو أفق يلوح وليس طريقاً يوصل. ليس معنى هذا أنه ضعيف أو مثالى أو انطوائى حالم كما حذر ديستوفيسكى من مثل هذه الأحكام، بل أحسب أنه لم يُختبر بمعنى الإنشاق للإلتحام، والانسحاب للبط، والجدل للولاف، افتقدت كل هذا - فتراجعت عن تقمصه، أو قل: صعبَ على تقمصه. احترمت أمل ديستوفيسكى ومحاولاته، وتوقفت حذراً من هذا الوجود الفنى الخاص -

من الضباب والصغار على حد سواء.

البطل لا يكون بطول فترة حضوره في الرواية، ولا بأهمية وتعدد علاقته، ولا بمساحة ظهوره، وإنما - عندي - أن البطل هو الذي يتميز بدلالته المحورية في الأحداث والمثول في عمق العمل الإبداعي.

لتصبح إنسانا آخر، في رأيي أنه يكفيك أن تظل طول حياتك تفكر في هذا الإنسان الآخر، وأن يظل هذا الإنسان الآخر ماثلا أمامك حيثما وجدت أينما هربت... الخ

إن الصرع أساسا بسط مكثف لطاقة الحياة حين لا تجد متنفسا إبداعيا، فهو صمام أمن بديل، لكنه أحيانا ما يكون إجهاضا متكررا لاحتمال نمو أو إبداع

إذا انتقلنا إلى حكاية الداخل، ورحنا نتساءل عن داخل سمردياكوف، هل كان، وهو بكل هذه العجاجة له داخل أيضا؟ الإجابة فوراً أنه "نعم"، بكل تأكيد

سمردياكوف هو داخل فقط حل محل الخارج تقريبا أو تماما، بحيث لو بعد إلا هو: كتلة متداخلة في بعضها، تتراكم فيها المشاعر (والأفكار) حتى تصل بالتراكم - وليس بالتفاحل - إلى عتبة الانهيار فتتفجر عمياء إلى غير وجهه، أو إلى وجهة بعيدة سرعان ما يكتشف أنها لاتعني

واعتبرت أليوشا - في مجمل حضوره وليس في كل حضوره وعدا، لا بطلا ولا ملاكا، وذلك في حدود قوله في نهاية الرواية.

"ولتصبح إنسانا آخر، في رأيي أنه يكفيك أن تظل طول حياتك تفكر في هذا الإنسان الآخر، وأن يظل هذا الإنسان الآخر ماثلا أمامك حيثما وجدت أينما هربت... الخ (10)".  
ليكن، وليظل أليوشا هذا الانسان الآخر القادم... ليس إلا...

أما سمردياكوف فهو البطل عندي، لأنه حقيقة عارية، تلخص وتحدد بشاعتنا حين نفصل عن الطبيعة والكون، ونخضع لظاهر اللفظ ومنطق الهرب - فمنذ ولادته، والإعلان يتلاحق بأنه جسم غريب، فقد جاء بديلا عن طفل آخر أخطأت الطبيعة في حسابات صنعه (ابن جريجوري) ، وقد جاء من أب مجهول لم يثبت صراحة أبدا أنه فيدوركارامازوف، ومن أم بلهاء "ناستازيا بتروفنا (11)" وهي ليست بلهاء فقط بل إنها منفصلة هي أصلا عن الطبيعة، رأيت ذلك في وصفها بأنها نقتة من نقتات جهنم، فهي أم لم تحتمل حضور ابنها، فانسحب - مات، جف - بمجرد أن لفظته، ورغم الفرصة النادرة التي كان يمكن أن تنتشئه بقدر من الثقة أكبر مما حصل عليه سائر الاخوة الثلاث للعلاقة التعويضية التي جعلت جريجوري وامراته يتبنيانه، رغم ذلك، فإنه أبقى أن يتلقى ما تلقاه ميتيا أو أليوشا، إذ يبدو أن شذوذه وتفرده وانفصاله عن الطبيعة منذ البداية قد تغلبا في نهاية الأمر، أو لعل ما أعطاه جريجوري وزوجته من أبوة وأمومة كانا من نوع غير غائر الاختراق بسبب غلبة شفقة مشكوك في نقائها، إذ قد تتضمن حقا لا شعوريا باعتباره بديلا مقحما، بديلا لابن من دمها ولحمها واختفى خطفا - لعل.

تبدو صفات ما أسميته "الجسم الغريب (12)" ال(13) منفصل عن الطبيعة صفات صريحة مباشرة في وعى ديستوفيسكي وهو يورد الوصف تلو الوصف لهوية سمردياكوف منذ طفولته.

ولعل أصدق وصف لهذا الانفصال هو أنه "شديد التوجس دائم الصمت لا لأنه خجول، فهو في الواقع جرى جسور حتى ليظهر عليه أنه يحقر جميع الناس."

ثم يأتي الصرع ليؤكد مع كل نوبة مزيدا من الانفصال - وليس كل صرع مؤد لهذا النوع من الانفصال، بل لعل العكس هو الصحيح فإن الصرع أساسا بسط مكثف لطاقة الحياة حين لا تجد متنفسا إبداعيا، فهو صمام أمن بديل، لكنه أحيانا ما يكون إجهاضا متكررا لاحتمال نمو أو إبداع، وهو بذلك - كما هو عند سمردياكوف يؤكد هذا الانفصال عن الطبيعة، ولا يؤدي إلى وظيفته الصمام أمنية، ولا الإبداعية، وأحسب أن صرع سمردياكوف - هو عكس صرع الأبله الذي حافظ -بصرعه- على تواصله مع الطبيعة الفجة.

ثم تأكدت حالة سمردياكوف كجسم غريب من مظاهر قسوته "ضد الحياة" منذ طفولته، فهو يشنق القطط ويرتل عليها بطقوس غريبة يفعل ذلك بسخرية حذسية من طقوس الدين والحياة الآخرة. فإذا تذكرنا طبيعة القطة وعدم استسلامها لمثل هذا النوع من العبث القاتل، زاد إدراكنا لأبعاد الصورة المتخاضة مع الحياة في صراع قاس، وموقفه من الكلاب ووضع دبوس في لكمة لكلب ضال، وتعليم إيليوشا ذلك بما ترتب عليه، هو أفسى وأصعب من هذا الموقف الكامل ل - شنق القطط، وهو أدل - عندي - على انفصاله عن الطبيعة.

ثم تأتي نقلة في نوعية الانفصال حيث يستبدل بالحياة القراءة، فنرى منذ البداية موقفه الساخر الناقد لكل ما يقرأ، بل إننا نرى كيف أن عيانيته كانت أقوى نقدا للتجريد عامة، فالرواية كذب لم يحدث، والتاريخ تلفيق، والشعر سخف وحماقة وتصنع

ديستوفيسكي هنا يعرى أزمة انفصال المثقفين بهذه الصورة الفنية الصعبة، بعد أن عراها بوصف مباشر.

وسمردياكوف هو صاحب موقف خاص حاد حتى في السياسة رغم اللزمات التي تثار حول نكائه - ولنتذكر هنا مواقف سياسية متجاوزة مثل رأيه في إلغاء الجيش مثلا.

أما عن حياته اليومية فقد قام بها كما ينبغي لمثله أن يفعل متميزا، وتحدد دوره في التزام قوى، دون

أن ينمحي في طاعة مائعة، أو يختبئ في أرضية مظلمة، وبالتالي اعتمد عليه فيدور فيما اتفقا عليه، وتحددت الأدوار فيما بينه وبين من نشأ في كنفهما والدين بدليلين: جريجورى وزوجته.

إذا انتقلنا إلى حكاية الداخل، ورحنا نتساءل عن داخل سمردياكوف، هل كان، وهو بكل هذه

الفجاجة له داخل أيضا؟ الإجابة فورا أنه "نعم"، بكل تأكيد. - بل إن سمردياكوف هو داخل فقط - مثل الجورب المقلوب، إن ما وصلنا منه ظاهرا ليس إلا داخل متختر مجمد، مثل كوم الزجاج المكسور المتناثر رغم تقاربه وكأنه كتلة واحدة. بألفاظ أخرى: سمردياكوف هو داخل فقط حل محل الخارج تقريبا أو تماما، بحيث لم يعد إلا هو: كتلة متداخلة في بعضها، تتراكم فيها المشاعر (والأفكار) حتى تصل بالتراكم - وليس بالتفاعل - إلى عتبة الانفجار فتتفجر عمياء إلى غير وجهه، أو إلى وجهة بعيدة سرعان ما يكتشف أنها لاتعنى شيئا، لأن الداخل بلا خارج لا ينتمى ولايتوجه، "إنه يجمع آراء ويراكم أفكارا<sup>(14)</sup>"، ولعل هذه المشاعر والأفكار التي تراكمت في نفسه خلال سنين أن تدفعه ذات يوم إلى أن يهجر كل شئ على حين فجأة، فيمضى إلى القدس حاجا ينشد الخلاص (بلا خلاص طبعا) أو تدفعه، لا تدرى لماذا، إلى أن يشعل النار في قريته فيحرقها، وقد يفعل الأمرين معا.

أليس هذا هو كومة الزجاج المكسور المتراكم الذي تجمعته شحنات سلبية جاهزة لإرسال شرارات أو انفجارات الأذى، بقدر ما هي معرضة للتناثر فالانجراح؟

وبرغم أن ديستوفيسكى قد ألحق هذه الفقرة بتشبيه سمردياكوف بأخرين، وهو من أسماهم "الحالمين من شعبنا" إلا أنني أعتقد أن هذا التعبير ليس دقيقا تماما (الحالمين). فهذا ليس موقف الحالم بل هو موقف الجسم الغريب، المنفصل، أو موقف الإنسان "الإناء" الممتلئ بلا ترتيب، المتنوع المحتوى المتفجر بلا قيادة، المنزلق بلا واقف حركة.

وجه الشبه بين سمردياكوف وبين إيفان قد سبقت الإشارة إليه، وأعيده هنا في إيجاز: إذا كان سمردياكوف ليس إلا داخلا فقط (في صورة خارج زائف كاره منفصل متفجر) فإن إيفان خارج فقط (وهو هو نفس الشئ) حيث أزاح داخله إلى بعيدا عن التناول، والاثان قد حققا ذلك بلعبة العقل والحساب القاسى وعدم الاستسلام إلا لما هو ممكن التحقيق في حدود منطق متين لا ينكر أحد سلامته، وهو ما سماه سمردياكوف بالنكاه.. كما ذكر مرارا أنه يلذ للمرء أنه يتحدث مع رجل نكي". ولكنه نكاه نو بعد واحد.

مشاعر البغضاء والكراهية والاحتقار والرفض التي كانت تتفجر صريحة واضحة كلما التقيا، لا تحتاج إلى تعليق أكثر من إعادة أنها تعلن أن كلا منهما يرفض نفسه في الآخر، لأن ليس لأى منهما آخر أصلا.

على أننا حين نقول ان سمردياكوف هو داخل فقط فإننا نعنى أن داخله قد اقتحم حتى احتل الخارج وحل محله، وبالتالي فإن ما كان منتظرا منه سلوكا اجتماعيا طبيعيا خارجا، قد اختفى داخله بدوره ليصبح الداخل الكامن الجديد، وهو الذى اقلقه حتى قضى عليه، كذلك حين نقول إن إيفان لم يعد إلا خارجا فقط، فإننا نعنى أن داخله قد أزيح بدرجة لم يعد معها يوضع في الحسبان اللهم إلا انقضاضا في غير أوان، أو تهديدا بغير فاعلية، أو تسليما بانهيال لم نره كاملا أبدا.

موقف سمردياكوف من الدين موقف ناقد واع، فهو معتقد نفعي (غير مؤمن) رافض في آن، وهو إن وصفوه بالزندقة أو الإلحاد أو التجديف إلا أنه لم يكن تماما كذلك، بقدر ما كان يحاول أن ينجو بذاته المغلقة من معركة ليس له فيها ناقة ولا جمل "حتى لا يسليخ مرتين" وأكثر.

ومع ذلك فقد وُصف - خطأ أو مصادفة - بالإيمان لمجرد أنه لم يعترف بالإلحاد إلا هربا من موقف بذاته، ولكن الوصف لم يكن بلا شروط أو تمييز، إنه إيمان، بدقة إنه "إيمان ليس روسيا البتة".<sup>(15)</sup>

لكنه في النهاية يستدعى الله دون توقع، ليتحدى به إيفان أى يتحدى نفسه، وذلك حين يعلن لإيفان شامتا، وهو يعترف له ويتهمه في آن: أن ثالثهم هو الله - "إن الله حاضر بيننا الآن، ولكن لا تبحث عنه لأنك لن تراه"<sup>(16)</sup>

هكذا يعلن سمردياكوف مباشرة - في النهاية وبيقين مفاجئ - فشل انفصاله - انفصاليهما - عن

الطبيعة

أليس هذا هو كومة الزجاج المكسور المتراكم الذي تجمعته شحنات سلبية جاهزة لإرسال شرارات الأذى، بقدر ما هي معرضة للتناثر فالانجراح؟

مشاعر البغضاء والكراهية والاحتقار والرفض التي كانت تتفجر صريحة واضحة كلما التقيا، لا تحتاج إلى تعليق أكثر من إعادة أنها تعلن أن كلا منهما يرفض نفسه في الآخر، لأن ليس لأى منهما آخر أصلا.

حين نقول ان سمردياكوف هو داخل فقط فإننا نعنى أن داخله قد اقتحم حتى احتل الخارج وحل محله، وبالتالي فإن ما كان منتظرا منه سلوكا اجتماعيا طبيعيا خارجا، قد اختفى داخله بدوره ليصبح الداخل الكامن الجديد

موقف سمردياكوف من الدين موقف ناقد واع، فهو معتقد نفعي (غير مؤمن) رافض في آن، وهو إن وصفوه بالزندقة أو الإلحاد أو التجديف إلا أنه لم يكن تماما كذلك

مع ذلك فقد وُصف - خطأ أو مصادفة - بالإيمان لمجرد أنه لم يعترف بالإلحاد إلا هربا من موقف بذاته، ولكن الوصف لم يكن بلا شروط أو تمييز، إنه إيمان، بدقة إنه



“ولعل لحظة انتحاره هي اللحظة الوحيدة التي تعلن نجاحه في إنهاء هذا الانفصال بالعودة إلى الطبيعة“ (17)

### شخصيات خارج العائلة

من البديهي أنني لم أعرج على كل من ظهر في الرواية أحكى كيف وصلنى، ومن هو، ولماذا، لذلك سوف انتقى بعض الشخصيات الأخرى، مرة بقصد نسبي، وأيضاً كيفما اتفق، لتكتمل الصورة، وإن كنت أحياناً اهتمت بالشخصيات الثانوية بغير اسم أكثر من اهتمامى بشخصيات الرواية، مثل الطبيب الذى اشتكى للأب زوسيم، أو مثل الفلاح الذى ناقش كولييا، وهكذا.

#### -1 جروشكا

حضور جروشكا يبدو مثل أناستازيا الأبله، لكن أناستازيا كان يمكن اعتبارها ”بطل“ الأبله، لأن حضورها كان محورياً غامراً، أما جروشكا فرغم الطيبة والجمال والليونة والذكاء والسماح، فقد ظلت تسير بجوار أبطال الرواية الحقيقيين، تظل لتختفى، وتغرى لتتسحب، كما أن ثمة إشارات قد تدل على أن عمر جمالها ونكائها وحضورها قصير، وتحديد سن الثلاثين يحتاج نفس الوقفه التى حدد بها إيفان نفس السن لانتهاء الأمل وانطفاء الحياة إلا من اللذة.

..على أنها لو رآها خبير فى جمال المرأة الروسية لتنبأ بأن هذه الرشاقة النضرة الربيعية فى جسدها فى نحو الثلاثين من عمرها، وأنها ستثقل وستسمن وأن عضلات وجهها ستتهدل.. وأن...، أى أن جمالها عارض ليس له غد. (18) ”

من أطرف ما يميز به ديستوفسكى فى وصف مثل هذه الشخصيات أنه يمتدح أخلاقهم أو يرسم صعوبتهم، ثم هو بعد تمهيد وتلميح يفاجئ القارئ - ضد كل ما توقعه، وما أوحى إليه به - أن أحدا لم ينل من هذه المرأة شيئاً جنسياً، أو هكذا ينبغي أن نعتقد، لأول وهلة، اللهم إلا بالنسبة للكهول الذين يتبنون منذ البداية، وحتى هؤلاء الكهول، فهم كهول!!!.

#### -2 إيليوشا:

أنا لا أعرف علاقة اسم أليوشا بـ إيليوشا وربما من الأفضل ألا أعرف - وقد بدا لى أن إيليوشا المهان والده، المذل بفقره، المقاتل بمرضه، هو نقيض آخر لأليوشا، ولكنه ليس نقيضاً بمعنى أنه عفريتته أو داخله (مثل الحال التى صورناها بين إيفان وسمردياكوف) ولكنه نقيض بمعنى الوقوف على الطرف الآخر يرسم الشقاء المتألم - فى مقابل الحب الفعال، وهو يرسم المذلة التى لا علاج لها فى مقابل الطمأنينة بغير أسباب.

#### ولم أجد تفسيراً مباشراً حتى الآن لهذه المقابلة.

ثم إن ثمة وجه شبه حقيقى فى أن كلا منهما تبنى أباه وإخوته بشكل أو بآخر، وأن كلا منهما كان محور أسرته، وأن كلا منهما كان عضواً محورياً فى مجتمعه، كلا على شاكلته.

#### -3 كولييا:

استقبلت كولييا على أنه - مشروع إيفان آخر - لكن كولييا له أم ”سيطر عليها“ فأجل إنفصاله عن الكون وهو يريد أن يقفز فوق عمره، ثم إنه - أكثر الله خيره!! - ليس عنده اعتراض على الله رغم علمه - متضلاً: ”أن فكرة الله ليست إلا افتراضاً..“!!!! الخ.

دلالة حادث مغامرته بالنوم بين قضبان القطار قد تشير إلى نوع العنف الذى تتضمنه روح المقامرة، إحدى مناطق ديستوفسكى المفضلة.

#### -4 كاتيا :

لم يكن دور كاتيا خافتاً إذا قيس بدور جروشكا، فجمالها حاضر، وقوتها شديدة حتى أنها لتثق فى تحريك كل شئ حسب إرادتها “يكفى أن أشاء كى أسحر حتى جروشكا“، ولعل ذلك قد ظهر منذ البداية وهى تضحى فى سبيل والدها، وما يكون يكون، ثم فى إزكاء التنافس عليها بترتيب منها، فتمادى كبرياؤها، واحتد حقدتها بلا حدود، ولنذكر أنها هى التى تقدمت لخطبة من تريد، ثم يصل غرورها إلى

أما جروشكا فرغم الطيبة والجمال والليونة والذكاء والسماح، فقد ظلت تسير بجوار أبطال الرواية الحقيقيين، تظل لتختفى، وتغرى لتتسحب، كما أن ثمة إشارات قد تدل على أن عمر جمالها ونكائها وحضورها قصير

أنا لا أعرف علاقة اسم أليوشا بـ إيليوشا وربما من الأفضل ألا أعرف - وقد بدا لى أن إيليوشا المهان والده، المذل بفقره، المقاتل بمرضه، هو نقيض آخر لأليوشا

ثم إن ثمة وجه شبه حقيقى فى أن كلا منهما تبنى أباه وإخوته بشكل أو بآخر، وأن كلا منهما كان محور أسرته، وأن كلا منهما كان عضواً محورياً فى مجتمعه، كلا على شاكلته

استقبلت كولييا على أنه - مشروع إيفان آخر - لكن كولييا له أم ”سيطر عليها“ فأجل إنفصاله عن الكون وهو يريد أن يقفز فوق عمره\*

يكن دور كاتيا خافتاً إذا قيس بدور جروشكا، فجمالها حاضر، وقوتها شديدة حتى أنها لتثق فى تحريك كل شئ حسب إرادتها “يكفى أن أشاء كى أسحر حتى جروشكا“،

درجة التأله لفظاً:

“هل يخجل أمام الله من الإفشاء إليه بأموره، والاعتراف بسرّه فلماذا يخجل مني؟“

-5 زوسيمًا:

كان حضور الأب زوسيمًا حضورًا ثقيلًا على نفسي - رغم طبيته - سواء وهو يرسل الحكمة تلو الحكمة - رغم رصانتها - أو وهو يحكى عن ذكريات أخيه، وتراكم هذا الثقل حتى ضببت نفسي متلبسا بالشماتة فيه حين فاحت رائحة جثته، بالمقارنة بالرائحة الزكية التي فاحت من جسد إيليوشا في النهاية، فهل قصدها ديستوفسكي؟

ولكن كل هذا لا يمنعني حتى من أن أرصد هنا استغادتي من بعض ما يستأهل الوقفة مثل قوله “إياكم والتسويات مع الرب“.

-6 ليزا: (وأما: السيدة هوخلاكوف)

لم يكن حضورهما ثانويًا، وإن كان حضورًا تافهًا، وقد أعجبني من ديستوفسكي بالنسبة لهما أنه أتقن رسم التفاهة حتى أعطى ليزا الحق في أن تصاب بنوبة تعلن هشاشتها، وقد بلغ من إتقان هذه الصورة أنني لم أتأثر من منظر الدم المحبوس تحت إظفر إصبعها الذي حشرته قصداً في الباب وهو يوصد، ولم أتعاطف مع عجزها.

أليس هذا في ذاته إبداعاً.

ديستوفسكي يتعامل مع التافه بنفس العمق الذي يتعامل به مع الأغوار تصعيداً وتوليفاً !!!.

خاتمة

لا يمكن أن تبقى هذه المحاولة بعرض كل ما وصلني من إضاءات عن النفس البشرية، وأعتقد أنني راجع إلى هذا العمل مرة ومرارًا، خاصة حين أحتاجه للمقارنة بين أعمال ديستوفسكي وبعضها، أو بينه وبين مبدعين آخرين.

من يدري؟

وأخيراً:

دعوني أكرر هذا الرجاء،

أستمحكم أن تقرأوا الرواية قبل المضي في قراءة النقد الذي قد يحتاج إلى أن يقرأ مجتمعا بعد قراءة

الرواية، والرواية موجودة تحت أمركم في الموقع [بهذا الرابط Link](#)

إرتباط كامل النص

<https://rakhawy.net/%d9%85%d9%86-%d9%83%d8%aa%d8%a7%d8%a8-%d8%aa%d8%a8%d8%a7%d8%af%d9%84-%d8%a7%d9%84%d8%a3%d9%82%d9%86%d8%b9%d8%a9-%d9%82%d8%b1%d8%a7%d8%a1%d8%a7%d8%aa-%d9%81%d9%89-%d8%af%d9%8a%d8%b3-8/>

إرتباط كامل النص مع المقترفاض:

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD050921.pdf>

كان حضور الأب زوسيمًا حضورًا ثقيلًا على نفسي - رغم طبيته - سواء وهو يرسل الحكمة تلو الحكمة - رغم رصانتها - أو وهو يحكى عن ذكريات أخيه

قد أعجبني من ديستوفسكي بالنسبة لهما أنه أتقن رسم التفاهة حتى أعطى ليزا الحق في أن تصاب بنوبة تعلن هشاشتها، وقد بلغ من إتقان هذه الصورة أنني لم أتأثر من منظر الدم المحبوس تحت إظفر إصبعها الذي حشرته قصداً في الباب وهو يوصد، ولم أتعاطف مع عجزها.

ديستوفسكي يتعامل مع التافه بنفس العمق الذي يتعامل به مع الأغوار تصعيداً وتوليفاً !!!.

## شبكة العلوم النفسية العربية

نحو تعاون عربي رقيًا بعلوم وطب النفس

الموقع العلمي

<http://www.arabpsynet.com/>

المتجر الإلكتروني

<http://www.arabpsyfound.com>

الكتاب السنوي 2021 " شبكة العلوم النفسية العربية " (الصدار العاشر)

الشبكة تدخل عامها 21 من التأسيس و 19 على الوجود

21 عاما من الضج... 19 عاما من الإنجازات

<http://www.arabpsynet.com/Documents/eBArabpsynet.pdf>